كنت فى القطيف ...

لم تكن زيارتنا للقطيف مقصودة فى ذاتها ، وإنما كانت الرحلة معقودة لجزائر البحرين فحسب ، وفى البحرين خطر لنا أن نزور منابع البترول فى المملكة العربية السعودية ، ويجمع هذه المنابع بالقطيف ساحل واحد هو ساحل الاحساء . وركبنا من مرفأ المنامة قاربا بخارياً قطع بنا المسافة إلى ميناء الخبر . فى ثلاث ساعات . وهذا الميناء هو مركز التنزيل لمعدات شركة الزيت العربية الأمريكية وهى مدينة رملية ناشئه لم تكن قبل عدة سنوات شيئاً مذكوراً فى هذا الساحل من الخليج ، وتبعد منابع البترول عنها مسافة ٢٥ دقيقة بالسيارة ، حيث تقوم مدينة الظهران الحديثة ، بحيها الأمريكى الفخم ومخيمات عمالها المتعددة وروح الحركة الدائبة فيها والحياة النابضة فى هذه الصحراء التى نقلها من الموت إلى الحياة ذلك الذهب الاسود الذى يتدفق من أعماقها .

واستقللنا فى صباح اليوم التالى لوصولنا المملكة السعودية السيارة إلى القطيف وفى طريقنا إليها مررنا بمدينة الدمام التى تبعد عن الخبر مسافة نصف ساعة بالسيارة وهى مقر الإمارة لمنطقة الظهران ، وأغلب سكانها من قبيلة الدواسر التى نزحت من البحرين منذ حوالى ٣٠ سنة أثر ضيم وقع عليها ، والدمام مدينة لاتزال فى أول أطوار نموها ، وينتظرون لها مستقبلا طيباً بالنسبة لوجود شركة الزيت حولها . وبعد أن غادرنا الدمام ، لم يبق علينا لكى نصل إلى القطيف إلا أن نقطع أربعين دقيقة نمر خلالها ببعض القرى الصغيرة ، أهمها قريه « سيهات » ومضارب بنى خالد ، ونكابد وعورة الطريق الذى لاتمر عليه سيارات شركة الزيت ولذلك لم يعبد ، حتى يبدو نخيل القطيف الباسق وبساتينها الملتفة . .

سور القطيف كما يبدو من الخارج

وتقع القطيف على ساحل البحر فى بقعة غاية فى الخصوبة غنية بالمياه ، ويبلغ عدد سكانها حوالى خمسين ألف نسمة أغلبيتهم الساحقة من الشيعة ، وعملهم الرئيسى فى زراعة النخيل والخضر والفاكهة .

وأنت إذ تقدم المدينة من البر ، يخيل إليك وقد هلت عليك تباشير مزارعها ، أنك قادم على جنة فيحاء وروضة يانعة ، ولكنك مالبث تبدو لك المدينة ذاتها حتى تصطدم بالحقيقة المرة فى حياة هذا البلد البائس .

إن هذه المدينة عريقة فى القدم ولا شك . ولا تحتاج لكى تدرك ذلك أن تقرأ فى التاريخ شيئاً عن ماضيها وأنها كانت منذ القدم مصدراً للتجارة والزراعة ومركزاً للملاحة بل يكفى أن تلقى نظرة على نظام بنائها ودرجة العمران فيها ونوع الحياة الاجتماعية التى يحياها سكانها بالنسبة للعالم الخارجى لكى تعلم أن هذه البلدة لاتزال تعيش فى طيات التاريخ من العصور المظلمة .

أردنا أن نجول جولة سريعة بسيارتنا فى شوارع المدينة ، ولكن أصغر سيارة لاتستطيع المرور فى تلك المسارب الضيقة ، ولذلك تركنا سيارتنا خارج « القلعة » وترجلنا . والقلعة سور يحيط بالمدينة كلها . ولبناء هذا السور قصة تروى ؛ ففى العهد العثمانى كان الأمن مختلا فى هذه الأنحاء ، وكانت القبائل تغير على المدن ، وخشى أهل القطيف غارة أعدائهم عليهم فأبتنوا حول المدينة سوراً محاذياً لحدود منازلهم . ثم نمت المدينة وتكاثر السكان ، ولكن الخوف من الأعداء لايزال باقياً ، فاضطروا إلى التوسع داخل السور فضاقت الشوارع شيئاً فشيئاً ثم سقفوا أغلب الشوارع حتى غدت جحوراً مظلمة ! .

وتنبعث إليك وأنت تسير فى هذه الطرق روائح تزكم الأنوف ، من فتحات عن يمينك ويسارك ، فان أصحاب البيوت يأبون إلا أن تكون افضلاتهم مخازن على الطرق، تكون مسرحاً للذباب والناموس ومبعثاً للجراثيم والأمراض .

وهكذا يتكالب الجو الرطب والشوارع الضيقة والأقذار المتراكمة والذباب والناموس على تكوين بيئة موبوءة تشيع فيها الملاريا فى أغلب أيام السنة ، فلا ترى إلا وجوهاً صفراً وأجساماً خائرة ، وتنظر إلى الأطفال ، وهم عدة البلاد وأمل المستقبل فإذا هم منتفخة بطونهم من تضخم الطحال . . وشكوى السكان قليلة لأن أغلبيتهم لم يألفوا إلا مثل هذا العيش ، أما المتذمرون فإن أصواتهم لا تبلغ آذاناً صاغية ولا يسمع لها صدى يذكر .

وليس هناك — للأسف الشديد — أى مجهود ذى بال يبذل لعلاج هذه الحال ، ونحن فى القرن العشرين ، عصر المدنية والنور ، ففى مدينة تشيع فيها الأمراض كهذه، ليس هناك مستشفى لعلاج المرضى وليس فيها طبيب إلا طبيب واحد يضيع فى هذا الخضم من المرض وفى هذا العسر من الأدوية ، . .

ولقد يكون لدينا أمل قريب فى تغيير هذه الحال ، لو أن هناك أملا فى تعليم سريع لهذا الشعب حتى يستطيع أن يدرك أنه يعيش عيشة غير لائقة فى أرض تدر الذهب ،

مدخل بساتين القطيف

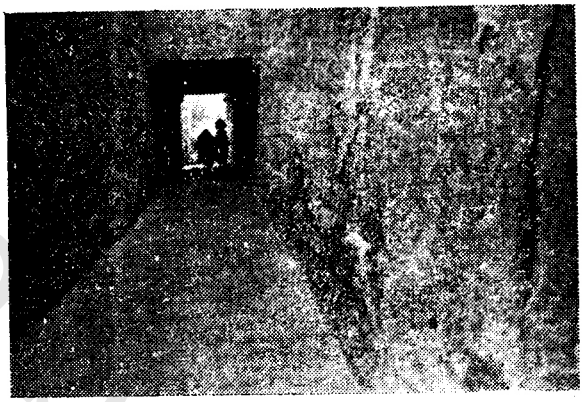

أحد شوارع القطيف . داخل القلعة وهى المدينة القديمة

وأنه يستطيع أن يحيا حياة محترمة إذا استطاع أن ينظم شئون نفسه ، فيقضى على أوكار الجراثيم ويعيش فى مساكن صحية ، ويعالج نفسه مما يحل بها من مرض ويردم تلك المستنقعات التى تتربى فيها حشرات الملاريا الفتاكة . . ولكن كم يؤسفنى أنه ليس فى القطيف مدرسة واحدة على النظام الحديث ، بل هى كتاتيب لا تقدم ولا تؤخر فى خلق عقلية جديدة ناقدة .

وإلى جانب ذلك تحتاج القطيف إلى بلدية تحمل معولا جباراً تعمله فى تلك « القلعة » هدماً ، وتضع نظاماً خاصاً للبناء يتفق مع البيئة فى البلاد . فلقد ضاق السور منذ سنين عمن فيه وأخذت البلدة تتسع إلى خارجه ولكنه اتساع عشوائى لا نظام فيه ولا هندسة .

ودلفنا إلى سيارتنا بقلوب مفعمة بالحسرة على هذا الغنى المهمل وهذا البلد المضيع ، وعندما أخذت السيارة طريقها خلال بساتين النخيل إلى « الخبر » تذكرنا مثلا شائعاً فى الكويت والبحرين يقول « إذا كنت رجلا فاذهب إلى القطيف ! . » حقاً إن فى الذهاب إلى القطيف رجولة لا يجدها كل إنسان ؟ . .

(ع . ح)

انشروا إعلاناتكم فى (البعثة)
تضمنوا لبضاعتكم الرواج